أفواهٌ
مفتوحة لا تبتسم

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب :أفواهٌ مفتوحةٌ لا تَبتسم
تأليف : أحمد أبو دياب
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٤٠٤٤ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 0 - 38 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

أفواهٌ مفتوحةٌ لا تبتسم

مجموعة قصصية

أحمد أبو دياب

الإهداء

إلى بنت النيل والصحراء

[نجادة] الفرعونية

«النجدة والإنقاذ»

إلى قطعة النور

[ني كاداي] القبطية

«الفهم والمعرفة»

...

إلى وطني الصغير الكبير

مدينة (نَقادَة)

بمحافظة قنا.. صعيد مصر

نَقادَة.. قنا.. مصر

الجمعة ١٠ نوفمبر ٢٠١٧

تصدير

«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».

– سورة الإسراء؛ الآية ٧٠ «قرآن كريم»

«فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا دُعِيتُمْ لِلْحُرِّيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ. غَيْرَ أَنَّهُ لا تُصَيِّرُوا الْحُرِّيَّةَ فُرْصَةً لِلْجَسَدِ، بَلْ بِالْمَحَبَّةِ اخْدِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

– من رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية؛ الإصحاح الخامس الآية ١٣ «الإنجيل»

قلتُ فليكن الحب في الأرض، لكنه لم يكن .

أصبح الحب ملكًا لمن يملكون الثمن !

. . . . . .

ورأى الربُّ ذلك غير حسن !

– أمل دنقل؛ من قصيدة (سفر التكوين) ديوان «العهد الآتي». «شعر»

يصبح الإنسان عظيمًا تمامًا بالقدر الذي يعمل فيه من أجل رعاية أخيه الإنسان .

– موهانداس كرمشاند غاندي

***

القسم الأول

«أفكار خاطئة عن الحياة»

قتل إنسان لا يزال جريمة حتى في الحرب!

– مانفريد فون ريتشهوفن

(طيار مقاتل ألماني، عُرِفَ بلقب « البارون الأحمر»، كان أشهر طيار بطل في الحرب العالمية الأولى؛ فقد سُجِّلَ له رسميًا إسقاط أكثر من ٨٠ طائرة من طائرات العدو)

سِفر شريعة الحرب

«كتابات منسية بيد الإنسان»

في حقول الفلا ندرز[1]

لم ينم ليلته هذه، أرّقه الصمت المخيف، اعتاد- هو وزملاؤه- أن يأتيهم النوم مع أصوات القصف، ترتاح أذهانهم وتسكن بعد سماع دوي الانفجارات تنداح هنا وهناك، قام الجندي جون ماكريه من مرقده وحرَّر ورقة مختبئة في جيب سترته، انزوى في ركن منفرد وأمسك ريشة ودواة، ليشرع في تأليف قصيدته الجديدة:

«في حقول الفلا ندرز يُزهر الخشخاش
بين الصُلبان المرصوصة صفًّا صفًّا
ذلك هو علامة مكاننا، وفي السماء
ما تزال القُبّرات مترنمة دون وجل، تطير
لا تكاد تُسمع وسط أصوات البنادق تحت!»[2]

---

١ - في حقول الفلا ندرز: قصيدة حربية كتبها الشاعر والطبيب، الجندي الكندي «جون ماكريه» خلال الحرب العالمية الأولى، بعد مقتل صديقه وزميله الجندي «أليكسيس هيملر» في بلجيكا.

٢ - مقاطع من قصيدة (في حقول الفلا ندرز) للشاعر الكندي «جون ماكريه».

ثم سقط من رأسه الفكر فانفرط عِقد لغته المُحكم، الحرب الملعونة تصيب كل شيء بالعطب، الحرب خدعة، عرفها الناس على أنها خديعة وكلُّ أمرٍ بها جائز، فاتهم أنها بذاتها خدعة، شَرَك مُميت، إله وهمي يسوقون له القرابين والعطايا طمعًا في النصر والسيادة، هذه الفلا ندرز الجنّة يخربها الجميع عن طيب خاطر، لم يحدث أن طرد البشر بعضهم البعض من جنّان الرب، ومن دون خطايا!

هو الطبيب والشاعر، قابعٌ وسط الخنادق المُعطِّنة ومستنقعات الدماء التي لا تجف، يطبب المصابين المُتأرجح أغلبهم فوق حافة الموت، لا يتعامل إلَّا مع قلة قليلة من البشر الصحيحين، أي بؤس هذا الذي يعانيه.

حاول معاودة الكتابة لكن الغيمة السوداء اعتلت مخيلته، تكدّر ولم تأته من الخيال بارقة، دسَّ حاجاته وقام ليتجول في الأنحاء، أحس بالطبيعة الشهيدة ترثي نفسها، تمالك نفسه ومشى نحو نقطة استقبال الجرحى محل عمله، تمدَّد على محفة المصابين وغلبه النعاس فنام.

أصوات طائرات ورصاص وقذائف وصراخ وارتطامات، أعادت الطبيب من نومه ليصبح فيما أمسى فيه، قام مسرعًا من مكانه واستعد لاستقبال الآتي.

هــرول الجنــود يحملــون مصابــين كُثــر، بــدأ بفحصهــم فوقعــت عينــاه عــلى وجــه مُحبّــب، صديــق روحــه وشريــك محبتــه؛ زميلــه الجنــدي أليكســيس هيملــر، وهــو يصــارع مــن أجــل التقــاط أنفــاس أخــيرة، عصــف بــه المشــهد وهــرب قلبــه مــن مكانــه، تــرك المصابــين الأُخــر وحملــق في صديقــه غــير مصــدق، هــزّه ونــاداه واحتضنــه، لكــن عزيــزه كان قــد تــسرَّب مــن بــين يديــه إلى عــالمٍ ثــانٍ.

أسـعف مـن كُتب لهـم النجاة، ثـم جلـس بجانب جثـة فقيده وشرد، بـلا أي وجهـة قـد يصـل إليهـا عقلـه، نظـرة إلى الجسـد المُسـجى ونظـرة في الفـراغ، أخرج الورقـة من سـترته، بحث عن دواة لم يجـد، غمـس ريشـته في الـدم السـائل عـلى الأرض وأكمل ما بـدأه مـن القصيـدة بالليلـة الفائتة:

« نحن الأمواتُ. وقبل أيامٍ قلائـلَ،
كنا أحياءً، أحسسْنا بالفجر، رأينا الأصيل يتألّق
أحبَبْنا وأُحبِبْنا، والآن نضطجع
في حقول الفلا ندرز»[٣].

٣ - مقاطع من قصيدة (في حقول الفلا ندرز) للشاعر الكندي «جون ماكريه».

سِفر الخروج

آرتيستيد: الوضع لن يتغير، ولو آثرنا الانتظار فسوف يطول ويمتد أكثر فأكثر.

نيكولين: هل سنتزوج، والبلاد مشتعلة يا حبيبي، والهجوم على الأبواب محتمل في أية لحظة؟!

آرتيستيد: نعم سنتزوج يا نيكولين، حتى إذا استمر الحال هكذا فأنا سأرتاح لمّا أحميكِ بنفسي، نعيش معًا، وإذا متنا فلنمت سويًا.

نيكولين: إذًا فلنتزوج، أحبك يا آرت.

آرتيستيد: أحبكِ يا نيكول.

أنهى الخطيبان جلستهما باتفاق على الزواج في أقرب فرصة ممكنة، وباريس آنذاك مضطربة جراء الحرب العالمية الثانية كما لم يحدث من قبل، الألمان يتربصون بعاصمة النور ليطفؤوها، أحرزوا تقدمًا كبيرًا في الأجواء الفرنسية ولا رادع لهم.

تمت الترتيبات سريعًا، وجاء الموعد المُزمع، ليلة الزفاف، والعروسان في فرح حذر، يخشون أن تُغتال سعادتهم، سمعا أخبارًا عن خطر وشيك الحدوث، لكن العاطفة اتّقدت مثل جذوة الحرب ولن تخمد إلَّا لو

اجتمعا، سار آرتيستيد بالسيَّارة إلى منزل عروسه، خطفها بخفة ومضى في طريقه إلى بيته حيث سيعيشان، قاربا على الوصول عندما شاهدا الناس يهرعون من منازلهم في خيفة ووجل، يطيرون إلى السيارات والدراجات النارية والهوائية وكل وسائل الركوب المتاحة، ومن لا يملك فقد خرج راجلًا خلف الراكبين، كان الإجلاء الاختياري الذي لجأ له الناس رحمة بأنفسهم من بطش الألمان، يغادرون باريس لوجهات مختلفة، الأرياف والمناطق البعيدة مقصدهم أملًا في النجاة، توقف آرتيستيد بالسيارة ونظر إلى زوجه بجزع وحيرة، فأجابته بنظرات لا تختلف كثيرًا، الناس يسارعون نحو الخروج، وهو واقف يفكر في الزفاف الذي لم يكتمل، بيت الزوجية الذي لن يعمّرانه، لانت ملامحه فجأة ثم كلّم زوجته برضا مضطرب:

آرتيستيد: حبيبتي نيكول، بما أن فرحتنا لم تكتمل وزفافنا لن يتم بالشكل المرجو، أنا أدعوكِ الآن لتشهدي أول زفاف تسير فيه مدينة كاملة، قبّلها ثم جرى بعدها بالسيارة وتقدَّم الموكب السائر والناس تلوح للعروسين بابتسامة مشفقة.

قرابين لا تُقبل

أخطأ فوقع في الحرب، آب عن ذنبه لكن العدو ليس هو الرب لكي يغفر، يدفع الآن الكثير من روح دولته

ومـن جسـد شـعبها، لم يتبـين لـه حـل واضـح، بعـد أن رفـض خصمـه الهدنـة، لم يـترك لـه خيـارًا غـير اسـتمرارية القتـال حتى ينتهـي أحـد الأطـراف المتصارعـة مـن الآخـر.

هكـذا عـاش القائـد محنتـه المتواترة، ليـل مشـؤوم في ذيله نهار كالـح، كيـف لـه أن يصحـح الأوضـاع؟! وأنّـى أن يسـترد ما قد ضـاع ؟! هـا هـم يردعونـه في أماكن عـدّة، يتقهقـر ويتقدمون.

عقـد مجلسـه التشـاوري مـع جنرالاتـه وأعوانـه المخلصـين، ألهمـوه بالتحفـظ عـلى قـرارات جديـدة لحـين إشـعار آخـر، يكفيهـم ترتيـب الأمـور والاسـتمرار في إعـادة تدشـين القـوات ومعداتهـا لترجـع كُفئًـا للمواجهـة مـرة ثانيـة، صـدّق ذلـك وانتهـى الاجتـماع، اتُفـق عـلى تحذيـر بقيـة الجنـرالات والقيـادات في مواضعهـا مـن تفاقـم الأمـر.

في وقـت لاحـق جلـس الجنـرال بـول خلـف مكتبـه، وقـد عقـد كفّيـه خلـف رأسـه، يطـير دخـان مـن بقايـا سـيجار يـأكل نفسـه فـوق مكتبـه، والجنـرال مسـدّدٌ بـصره لمـا خلـف زجـاج النافـذة، تفكـر في مـا آلـت إليـه الأمـور، مصائـب جديـدة خطـرت ولـن تصدّهـا أذهـان ولا أيـدي، يدفـع الجميـع ثمنًـا غاليًـا لمـا اقترفـه القائـد المعتـوه، أعطـى أوامـره لتابعيـه كـما جاءتـه مـن القيـادات العليـا، وجلـس عـلى قلـق يتابـع التطـورات القادمـة.

ساد الذعر ودبَّ الخوف في أوصال الناس، بعدما ذاعت أجهزة الراديو خبرًا عن احتمالية حدوث هجوم من العدو، وحذّرت الأجهزة المعنية المواطنين ليتخذوا اللازم في حالة وقوع اعتداءات، كان المواطن كيفن وزوجه تاتيانا مثل بقية الشعب يرتعدون من القاتل المجهول والميعاد المُبهم، جلست العائلة كلها، بعد أن جلبا أولادهما زيلما وأوديل وسيباستيان إلى الصالة، واتفق الجميع على الهرب لأحد المناطق الريفية النائية والاحتماء هناك لحين تحسن الأوضاع.

خرجت العائلة فارّة من الجحيم المنتظر، وصلوا إلى وجهتهم المأمولة بعد تخفٍ وعناء، استقروا آمنين مؤقتًا، ليجيء بعدها الهجوم المباغت، فيدفنهم القذف في المنطقة النائية.

مَرّة واحدة قبل العودة

تعليمات بالعودة نهاية الأسبوع الحالي إلى مرفأ نازيٍّ قريب، وذلك لاستبدال الطاقم وإتمام عمليات الصيانة الدورية، هكذا تلقى مسئول الإشارة الرسالة وطبعها، قبل أن يتوجه بها مسرعًا نحو القائد.

في المحيط الأطلسي، تقدَّمت الغواصة الألمانية المقاتلة يو بوت[٤]، يسيرّها القائد لوتار دولابيريير[٥] نحو أهداف محددة مسبقًا، سفن من أسطول دول الحلفاء البحري، يصطادها بمهارة فائقة، صيته ذاع في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الأولى، كأحد الذين حمّلوا العدو خسائر ملحوظة، كان قد دمّر وأغرق ما يزيد عن مائتي سفينة أمريكية وبريطانية وفرنسية ويابانية وسفن لباقي دول التحالف.

طالع لوتار نص الرسالة وابتهج قليلًا، كان قد ضاق بما يفعلونه ضد السفن المحملة بالمؤن، أراد قتالًا حقيقيًا يُظهر فيه براعته ومهاراته الحربية، لكنها الأوامر، هو مكلفٌ بمهام محددة عليه إنجازها حتى لا يتعرض لتهمة الخيانة ومن ثمَّ الإعدام، أصدر الأوامر لمن هم دونه عقب التعليمات الجديدة، واستعد الجميع للعودة خلال أيام.

لاحت سفينة إمدادات معادية، كالمعتاد كان عليهم مهاجمتها وتدميرها بما ومن فيها، الكل على أهبة الاستعداد

---

٤ - لوتار دولابيريير: هو لوتار فون آرنو دو لابيريير، قائد غواصة نازي اشتهر في أسطول القوات النازية البحري خلال الحرب العالمية الأولى.

٥ - يو بوت: اختصار للكلمة الإنجليزية (Under sea boat)، وتشير إلى نوع غواصات ألماني استُخدمت في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

في انتظار إشارة من القائد للهجوم، تردد لوتار هذه المرة من غير سبب محدد، فقط لم يعجبه هذا، لذا أصدر أمرًا مختلفًا، حيث أمر بإجلاء الطاقم أوَّلًا من السفينة إلى مركب، وتدمير السفينة بعد التأكد من خلوها من الناس.

الملتصقون بالرب

قاومت لكنها انهارت في النهاية، ليقوم الجندي الإنجليزي باغتصابها، وهي في طريق عودتها من العمل للمنزل، چولاندي الفتاة الأفريقية السمراء التي تعمل في أحد مصانع الذخيرة، المصانع المنتشرة عبر المستعمرات الأفريقية، لخدمة الإمبراطورية البريطانية وإمدادها بالأسلحة في حربها العالمية الممتدة.

بكت كأن البكاء سيطيل عمرها، تمنت لو أن الجندي قتلها بدلًا من أن ينالها عنوة، فكرت في أن تبحث عنه وتقتله انتقامًا لشرفها، ثم فكرت في أن بلدها نفسه مغتصب، كل ما حولها ليس في مكانه الصحيح ولا في اليد المناسبة، هدأت وتركت دموعها تجف على مهل.

تعمل بجدية وإخلاص، حسب ما يردده المشرفون الإنجليز؛ لو ساعدوا بريطانيا للانتصار في الحرب، ذلك سيكون خطوة واسعة يقطعها أهل المستعمرة نحو تحررهم من الاستعمار، والفوز بالحماية البريطانية بعد خروجها من

أرضهـم، عـلى كل الأيـدي العاملـة ألَّا تقـف حتـى تتوقـف الحـرب لمصلحـة البريطانيـين.

اليـوم التالي عـادت لعملهـا وكأن شـيئًا كان وانمحـى، يومها في العمـل مسـتمر مـن أول النهـار حتى غـروب الشـمس، تُعبِّئ القذائـف بمسـحوق البـارود وتغلقهـا ثـم تجهزهـا للاسـتخدام، جلسـت وهـي تفكـر في الخـلاص، مـن المـشرف، الجنـدي، وكل هـؤلاء البِيـض الملاعـين، حملـت القذيفـة الفارغـة وبـدلًا مـن أن تسـكب مسـحوق البـارود بهـا، أغلقتهـا فارغـة وبـدأت تعمـل بنشـاط.

***

★ - نُشرت هذه القصة في مجلة [الثقافة الجديدة] العدد ٣٣١ أبريل ٢٠١٨م.

رصاص فارغ

« عثرت على واحدة أخرى، حتمًا هناك الكثير منها هنا ».

صرخ الطفل من موضعه، في وجد، وهو يشير لصديقيه أن يقتربا، بينما يتحسس بيديه رصاصة فارغة.

فتقدَّم الطفلان إلى حيث يقف ثالثهما، مُتَلَفِّتَين من حولهما مدققين في الأرض، راجيين أن يتمتعا بمقدار حظه أو أكثر قليلًا.

كانت الرصاصة تلمع تحت ما تبقى من الشمس بعد أن انقضى من النهار رَدْح ، وكأنها بلمعانها تتبسم في رضا، بعدما ألقت ما كان بها إلى جسد ما واستلبت مكانه فوق الأرض، والولد لاهٍ يطوح بها في الهواء، ثم يحتضنها بكلتا يديه عندما تحط عليهما.

ربما لم تحط بفعل الجاذبية فعلًا، ولكنها حطّت بفعل رمية غاضبة من ملاك؛ أذعن لأمر سماوي ألا تُدنِّس السماء برصاص فتلقفها وردَّها لأسفل ثانية.

التفوا، وشكل ثلاثتهم دائرة بحث، وظلوا يجمعون كل ما يقع تحت أيديهم من فوارغ.

إنه لمن دواعي العجب أن تلك القطعة المعدنية ضئيلة الحجم؛ لعبة للكبار وللصغار.

« كم واحدة تنقص لنكمل بناء البيت الذهبي »؟

تلفت الطفل الثالث نحو صديقيه متسائلًا بجدية، فأجابه الأول: « اليوم قد جمعنا عددًا لا بأس به »، ثم أضاف: « وربما استطعنا إكماله عند نهاية اليوم، لو وجدنا كمية إضافية بالقرب من معسكر تدريب الجنود، الموجود بين بلدتنا والبلدة المجاورة ».

ليتبعه الطفل الثاني صائحًا: « إذًا فلننته منه قبل الغد ».

ابتهجوا جميعًا، رغم هذا الجهد الإضافي، لأنه سيقربهم مما يبتغون، وانطلقوا نحو معسكر التدريب؛ كرصاص يبحث عن رصاص.

الأطفال في تلك البلدة لهم من الأحوال ما يتندر به الحكَّاؤون، فهم فُطِموا على النيران ومناظر القتلى وصرخات الجرحى؛ ألفوا - جراء الحرب - معاشرة الرصاص واعتادوه مسموعًا ومرئيًا آناء الليل وأطراف النهار، بعد أن تذوقوا الفقد مرارًا لم يعد طعمه مُرًا؛ لذا يقضون على أوقاتهم المملة، يقتلونها بالرصاصات الفارغة، يجمعونها بعد كل إطلاق نار يداهم بلدتهم، ثم يلعبون بها

(السيجة) أو (الشيزة) كما يسميها بعضهم، وهي لعبة قريبة للشطرنج.

وهناك صغار آخرون يلتقطون الطلقات الفارغة، ليبيعوها لتجار المعادن قصد التربح.

آه منها! الظروف! تلك التي تشعل الظروف فتحل من بعدها الصروف، ليتوارى وراءها من غير المرغوبين ضيوف.

الثلاثة كانوا يجمعون الطلقات الفارغة ليبتنوا بها بيتًا صغيرًا في ندحة غير مأهولة، بالقرب من الجهة الغربية للبلدة، فهم منذ تعرّفوا الرصاص عيانًا، وبخيالهم الطفولي البريء البارع، تصوروا أن الطلقات من الذهب للونها الذي يميل للاصفرار، فأضمروا النية على أن يكون لهم منها بيت صغير، أطلقوا عليه مجازًا (البيت الذهبي)، وتعاهدوا على ألَّا يكشفوا عما تخفي سرائرهم إلَّا بعد أن يتم المراد ويملأ الفراغ البيت، في المنطقة التي اختاروها بعيدًا عن أعين الأطفال المتطفلين والكبار الآمرين الناهين.

توغلوا في الطريق الواصل ما بين البلدتين، مستبقين الوقت، قبل أن ينسكب الظلام بأكمله فوق رؤوسهم.

ومشوا حسب خطة معينة تضمن لهم السلامة، فهم يعلمون أن الجنود يقضون نوبات حراسة منتظمة، وكثيرًا

ما سمعوا أصواتهم واشتموا روائحهم، تارة أثناء الخدمة والدربة على التصويب، وأخرى وقت الراحة واللهو والسمر، بيد أن الرياح كانت تسير معهم، فلم يَتَسَنَّ لهم أن يسمعوا أي أصوات آتية من ناحية المعسكر، ولا أماكن المراقبة المتناثرة حول مداخله.

لّما وصلوا عند بداية الطريق إلى أسوار المعسكر، توخوا الحذر فساروا بخفة، متوجسين أن يراهم أحد المجندين.

إلى الحد الذي يمنع عنهم بطش الجنود تقدموا، وبحثوا في كل الأرض من تحتهم، لكنهم لم يجدوا شيئًا فقرروا العودة من حيث أتوا، تصحبهم الندامة، فالبيت الذهبي لن يكتمل في يومه هذا.

حلَّ الظلام على الأطفال، في طريق عودتهم، واستحالت التفاصيل خيالات ، لم يتبينوا جيدًا أن هناك من هو قادم ناحيتهم بِخطىً خفيفة مدرّبة ومترقبة، وإذا وصلوا مدخل البلدة برز لهم من تحت الأرض جنيان على هيئة جنديين، لابد أنهما من الدورية الليلية المتحركة التي تمشط المنطقة حول معسكر التدريب قبل تبديل نوبة الحراسة.

« ماذا تفعلون هنا »؟

توقفوا تمامًا عن السير، والذعر يتقاذفهم، وانتابتهم الظنون مما قد يؤول إليه مصيرهم، والجنديان قد أشهرا أسلحتهما في وجوههم.

لم يَقْوَ أحد من الأطفال على الرد، ولَفَّهَم الصمت المشوب بالقلق.

فكرّر الجندي سؤاله بحدة أعلى، وزاد عليه أن قال:

« ما أسماؤكم ومن أين أتيتم ؟ وماذا كنتم تفعلون ناحية المعسكر ؟ لينطق أحدكم قبل أن أرديكم قتلى ».

تخلّى طفل منهم عن خوفه، وأجاب الجندي بشحنة مؤقتة من الشجاعة: « أسماؤنا لا تهم، أما من أين أتينا فنحن من هذه البلدة القريبة »، وأشار بيده.

تقدَّم إليهم الجندي الآخر وقام بتفتيشهم، فوجد في جيوبهم كمًا من الرصاصات الفارغة، أمسك بعدد منها وسألهم بغضب: « ماذا تفعلون بها؟ ومن أين أتيتم بها »؟

أجابه الطفل من دون تردد: « نحن نجمعها من أول النهار من مناطق متفرقة في بلدتنا، أو أينما نجدها، ونستعملها في التسلية ».

بـان الامتعـاض عـلى وجه الجنـدي وكأنـه لم يصدق ما سـمعه مـن الطفـل، ثـم نظـر إلى زميلـه منتظـرًا منـه إشـارة ما بـأن يتخذ أي إجـراء ضدهـم، لكـن زميلـه أومـأ برأسـه أن دعهـم يمـرون بسـلام ففهـم أن ليـس هنـاك خـوف منهـم أو ممـا يفعلـون.

أعـاد إليهـم الظـروف وقـال بلهجـة مشـدَّدة: « لا تعـودوا هنـا ثانيـة وإلَّا تعرضتـم للاعتقـال أو الرمـي بالرصـاص ».

تقبـل الأطفـال كلامـه مـن دون تعليـق، أخـذوا حاجتهـم، ومضـوا بـلا كلـمات إضافيـة، اسـتداروا وتوجهـوا ناحيـة البلـدة، والجنديـان في مكانهـما يرقبـان مشـيتهم، وبعـد أن ابتعـدوا بأمتـار قليلـة قـال أحدهمـا للآخـر: « مـا مـدى قدراتك في اصطيـاد الأهـداف المتحركـة في الظـلام »؟

فَرَدَّ بزهو: « بندقيتي كفيلة بالرد، وَلنرى من منا الأكفأ ».

صـوَّب الاثنـان، فتحـرَّر المـوت السـاكن أفـواه البندقيتـين، انتقـل سريعًـا ودقيقًـا إلى طفلـين واسـتقر في جسـديهما، الطفـل الثالـث أُلجمتـه الحادثـة فلـم يَـعِ مـا حـدث، إلَّا وصديقـاه قـد أصابتهـما الطلقـات الكثـيرة المتتاليـة، فتسـاقطا كأفـراخ الحـمام الصغـيرة حينـما تباغتهـا طلقـات الصيـاد، وهـو ينظـر إليهـما مذهـولًا ترحًـا، والجنديـان يقتربـان مـن مكانـه ليريـا مـا

عملت يداهما وما حصدته بندقية كل منهما، ليجداه قد زاغ بصره وتهدَّجت أنفاسه، كأنه سيلحق بهما.

قال جندي منهما للآخر بصوت يعج بالثقة: « لم نخطئ الأهداف يا عزيزي، المجد لنا ».

ثم تَوجَّه إلى الطفل بكلامه، واستطرد بلهجة ساخرة: «أظنك كنت تبحث منذ قليل عن رصاصات فارغة ».

توقف الولد دقائق يحملق في هدأة نحو جثتي الطفلين، ثم انتظر إلى أن غاب الجنديان عن مرأى العين، فأخذ في التقاط الظروف من الأرض بيد، واليد الأخرى كان يكفكف بها دموعه، ثم مضى، بعد ذلك، يشق الظلام جاريًا، هو ودموعه.

★ - فازت هذه القصة بالمرتبة الثالثة عربيًا في مسابقة (قصص على الهواء) خلال شهر إبريل ٢٠١٧م، التي تنظمها مجلة العربي الكويتية بالتعاون مع إذاعة مونت كارلو الدولية في باريس، ونُشرت في جريدة [أخبار الأدب] العدد ١٢٤٠ بتاريخ ٣٠ إبريل ٢٠١٧م.

قبل الحياة بدقائق

الجـو ملبـدٌ بالدخـان، والسـماء عـن البلـدة محجوبـة حقيقـةً، ومجـازًا، بِمَـدِّ البـصر.

ومـن تحـت بيـت مفتـت، بـرزت سـيدةٌ تقاتـل لتحـرك طرفهـا بعـد أن أصابتهـا طلقـات النـار وأقعدتهـا النـيران في مكانهـا، كانـت السـيدة حامـلًا وعـلى وشـك الـولادة في أيامهـا الحاليـة، ولم تحسـب قَـطُّ أن القصـف سـيتجدد في هـذه الآونـة، وينهـي حياتهـا، وحيـاة وليدهـا التـي لم تبـدأ بعـد.

ولكـن القـدر لم يمهلهـا لتضـع حملهـا في سـلام، وعـلى سرير كالأخريـات، جـاء الـضربُ مباغتًـا ومركـزًا هـذه المـرة، ولم تُمنـح فرصـة للفـرار أو حتـى الاختبـاء عـن أعـين الطائـرات.

أحسـت بـألم إضـافي غـير مـا يكتنفهـا مـن أوجـاع جـراء الانفجـارات الشـديدة، هـو المخاض يعتصر جسـدها ويسـحب رُوحهـا للأسـفل، بكـت حُرقـةً واسـتعبرت لحالهـا، كيـف لها أن تمنـح بطاقـة حيـاة لوافـد جديـد في حـينٍ تُسـتلب فيـه البطاقـات عنـوة.

لم تَقْـوَ عـلى الـصراخ لمـا أصابهـا مـن وهـنٍ ومـا حـلَّ بهـا مـن ذهـول، ردت دموعهـا وتمنـت لـو أن ذلـك لا يتـم، لتموت هـي ومـن فيهـا، كـي لا تجلـب ضحايـا جُـددًا للحـرب.

مـرّ الوقـتُ بطيئًـا وقاتلا ككل مـا حولها، وهي تحـاول أن تمنع المأسـاة أن تحـدث، آهٍ لو أن جنينها سيسـمعها لـو تحدثت، لتخبره الحقيقـة وتقنعـه بالعـدول عـن المَوْلِدِ والسـقوط في هاويـة الدنيا، ودّت لـو أفهمتـه أن بطنهـا أكثـر أمانًـا إلى أن ينتهي الأمـر، ولكن هـذا كلـه لـن يحـدث والمولـود أصرَّ عـلى الدخـول في التجربـة ورؤيـة الدنيـا بعينيه هـو لا أمه.

تَبَـدَّدَت الأمـاني لمّـا انزلـق منهـا ابنهـا خـلال شـهقاتها المتسـارعة وأنّاتهـا الرافضـة المنزعجـة، وبـدأ البـكاء مقسـومًا مـا بـين الوالـدة والمولـود.

مـدّت يـدًا، وحاولـت التقاطـه وتخليصـه مـن الحبـل الواصـل بينهـما، فعلتهـا ثـم تراخـت وأسـندت رأسـها عـلى حجـرٍ، وأحسـت بالمـوت يـسري بجسـدها، صمتـت وماتـت مـن دون مقاومـة وأفلتـت مـن الحيـاة بأعجوبـة، وتبقَّـى الصغـير في مهـده الـترابي يـصرخ فيشـقُّ الوجـوم المطبـق عـلى المـكان ويُعْلِـمُ القَتَلَـة عـن مكانـه.

★ نُشرت هذه القصة في جريدة [الأهرام] العدد ٤٧٤٣٥ بتاريخ ٢٠ أكتوبر ٢٠١٦م.

من سيهتم؟

(قصص قصيرة جدًا)

[١]

أن تفرح

- ماذا ستدفع مهرًا لها؟

- ست بندقيات آلية، وخمسين خزنة، وعشر قذائف آر بي جي.

- وماذا عن يوم العُرس؟

- أعدكم - ما دمت حيًا - سيكون يومًا حافلًا، فأنا أخطط للاستيلاء على دبابة من نقطة التفتيش المتاخمة لمنزلنا.

***

[٢]

أن تخاف

طـارت حمامـة بغصـن زيتـون في منقارهـا، تغـذت عـلى جـزء منـه حاملـة المتبقـي إلى العـش، طائـرات مجنونـة رأتهـا تلقـي القذائـف مـن باطنهـا بسرعـة وسـهولة، كأنهـا مصابـة بإسـهال وترمـي برازهـا عـلى مـن هـم تحتهـا، فزعـت الحمامـة وألقـت مـا في فمهـا لتحـت، تقيـأت مـا في باطنهـا مـن زيتـون، ثـم اسـتدارت تركـض خلـف الطائـرات.

***

[٣]

أن تعود

عائـدًا لمنزلـه ، كان يسـير في شـوارع مدينتهـم، تنامـى في سـمعه صـوت رصـاص يـصرخ في الجـو، تـردد أن يكمـل لكنـه لم يخـف، تقـدَّم بتحفـظ في طريقـه، شـاهد أفـراد المقاومـة يحاولـون اسـترداد شـارع مسـلوب، ترقّـب نتيجـة صراعهـم، شـاهدوه قادمًـا فصـوّب نحـوه الجميـع أسـلحتهم، ظنًـا منهـم أنـه عـدو، فـمات بطلقـات الفريقـين.

***

[٤]

أن تخون

ذهب ليبيع نفسه لهم، أخبروه أنهم لا يحتاجون الآن مزيدًا من الخونة، الأماكن كلها ممتلئة، فعاد يجر أذيال الوطنية.

***

[٥]

أن تموت

أحسَّ بهم يقتربون مسرعين نحو منطقتهم، يسوقون الموت أمامهم مثل كرة القدم، لبس طاقية الإخفاء، تلك التي عثر عليها عند أحد من أصدقائه الأشقياء، وحده شاهد المأساة بعد أن انزوى لركن ما، الحي أبادوه ثم تركوا النيران خلفهم، كدليل على أنهم مرّوا من هنا.

الحياة ذبلت فجأة مع هذا الخريف المُهلك، وتساقطت باحتراق الأشخاص والأشياء، أحس بالنار تلفحه وهو في مكمنه، خلع عنه الطاقية بشجاعة، ولّى وجهه نحو بيتهم الذي لمع حطامه، وسبح في الموت الذي ينثال من النيران.

***

★ نُشرت هذه القصص في جريدة [القَبَس الكويتية] العدد ١٥٩٤٣ بتاريخ ٢٠ أكتوبر ٢٠١٧م

القسم الثاني

«نَدَبات في جسد العالم»

ثم توقف عن الكلام، واتخذ هيئة المعلم حينما يسأل تلميذًا واعدًا: «كيف يؤكد الانسان سلطته على إنسان آخر يا ونستون؟»

وقال ونستون بعد تفكير: «بجعله يقاسي الألم».

– من رواية جورج أورويل (١٩٨٤)

أفواهٌ مفتوحةٌ لا تبتسم

رِجلي أسرع من قلبي

الآن صرت أجالس الوقت فقط، أرعى الانتظار الذي يكبر، أتحدث قليلًا وأتثاءب كثيرًا، نتشاكس أنا وأنا، إلى أن أحمل ضجري للنوم ثم أنام.

عملت جليسة أطفال منذ سنوات، رافقت الأطفال بعد أن فاتني الزواج، فاتني هو؟ أو ربما أنا التي فوّته؟ لا أدري!

لا شيء يعكر صفو سكوني إلَّا رجلي؛ تغافلني وتركل الصمت، طوال الوقت تهتز من دون توقف أو استراحة، أُجاهد في سبيل إيقافها ولا أفلح.

كما كانت رجلي لا تكف عن الاهتزاز، عوّدتها تتحرك ليسكن الأطفال فيناموا، لم ألتفت لرجلي التي أدمنت الاهتزاز، تهتز بانتظام وتتحرك سريعة؛ أسرع من دقات قلبي المعهودة!

جرت حياتي مثلما تجري رجلي في مكانها، انحسرت أيام شبابي عن شاطئ عمري، تباطأت روحي، وعزيمتي تآكلت، حتى لم تعد لي طاقة لمجالسة طفل، ولا بال لمداعبةٍ وإن كانت لِقِطٍّ صغير.

آويتُني في المنزل بعد ما اعتزلتُ العمل، استقبلتُ نفسي جيدًا وأعددتُ العُدة للمكوث الطويل، رجلي المدمنة

تتلـوى ليـل نهـار، أراقبهـا، وأنـا أُلقـي نظـراتي في بئـر الفـراغ مـن غـير أن تمتلـئ.

روحـي تهـزّني ورجـلي تسـتفزّني، أحتـاج هـدوءًا لا يقطعـه صراخ، وَحـدةً لا يخالطهـا صغـير ولا يعطّلهـا كبـير، أبكـي أنـا ولا يبكـي أحـد غـيري، أعصمنـي مـن كل شيء، أنجـو بعدهـا أو أغـرق لـن يهـم، المهـم أن تتفهـم رجـلي موقفـي، وتقـف.

***

أفواهٌ مفتوحةٌ لا تبتسم

أعمـل مرضعـة للأطفـال، مـن سـنوات وأنـا أذوب في أفـواه وأنـزل لبطـون كثـيرة، مـن ولادتي الأولى، ومنـذ هطـل عـلى منبعـي مطـر، لا يتوقـف نهـري عـن الجريـان منـي إلى الرُضَّـع.

حيـاة تقليديـة مثل كثـيرات من النسـوة، بيـت وزوج وأطفال ومسـؤوليات، دفعتنـي الحاجـة للعمـل، لا شـهادة أملكهـا كـي أتطـاول عـلى مجتمـع المتعلمـين، فقـط كان أمامـي أن أعمـل بشـهادتي الفطريـة، أنوثتـي التـي لا تحتـاج إثباتـات ولا أوراق.

رفضـت العمـل كخادمـة، أعـرف أننـي لـن أسـلم مـن مضايقـات أربـاب البيـوت، فضلـت أن أعمـل مرضعـة، الأطفـال أهـون مـن آبائهـم.

أنجبت الأطفال تباعًا، وبحسبة لا أفقد من خلالها تدفقي ولا يجف منبعي، عندي بنات وصبيان لكن عطائي لا يتوقف، لا طمعًا في مزيد من الخلف، بل طمعًا في هذا السائل السحري الذي يأتي معهم من العالم الآخر بعد ولادتهم، أوشكت على اليأس، وأعلم أن لإنجابي حدًا سأبلغ منتهاه خلال سنوات، بعد الأربعين على الأرجح.

العمر إذا تقدَّم لا عائق يوُقفه، ولا احتياط سيجنّبني الشيب، كانت دعواتي أن يتأخر اليأس وأحواله، وتظل تربتي صالحة للزراعة.

أحيانًا تُرهقني نظرات الناس، وهم يدققون في صدري بأفواه مفتوحة وعيون نافذة، سمعت أحدهم مرة يقول: « لا بد أنها مومس تبيع نفسها بهذا الصدر الكبير الممتلئ دائمًا»، ربما فعلًا راودني إحساس بالعهر في بعض الأوقات، حيث الأطفال أنفسهم أتخيلهم وحوشًا صغيرة تمتصني على مهل، وبإرادتي.

***

الهواء طعمه لاذع

حدّثتني صاحبة المنزل أنهم سيستغنون عن خدماتي بداية من الشهر المقبل، لم يخلُ كلامها من لهجة ودود تتناسب مع عدد السنين التي أنفقتها عليهم بخدمتهم، أطبخ لهم وأتولى شئون المطبخ عمومًا.

لساني تذوق كل الأطعمة التي أخرجها مطبخهم طوال فترة وجودي، كانت السيدة تمدح صنائعي، وترغب دائمًا فيما أقدمه من أكلات، وأصبحت تطلب أصنافًا بعينها على فترات منتظمة، من فرط إعجابها بي، وبما أفعله في فن صناعة الطعام.

تمنيت لو أبقتني السيدة عندها، وأتت بطباخة غيري، واكتفت بوجودي كمشرفة على ما يدور، لكن الأمر يتعلق بأمور مادية، أو تجديد أقرّته الأسرة وشملني التغيير، لا أدري حقًا.

رجعت لبيتي، سيدة بيتي أنا لكن ثمة أشياء لا أحسها فيه، أطبخ لأسرتي ولا يستهويني الأمر كما اعتدت في عملي، أطبخ هنا فقط للواجب المنزلي المنوطة به، كان هناك مطبخي ومملكتي، الآن صرت في مكاني كآنية لا تُستخدم، تبقى على الرف بلا استعمال، ولو خرجت تخرج في المناسبات، ولساني ينفلت مني على غير العادة متمردًا على مكمنه، لا يجد ما يختبره، فأصبح يخرج من فمي ليتذوق الهواء.

***

★ نُشرت هذه القصة في جريدة [البوابة] العدد ١١٣٣ بتاريخ ١٢ يناير ٢٠١٨م.
★ نُشرت هذه القصة في جريدة [النهار الكويتية] العدد ٣٢٩٩ بتاريخ ٠٩ فبراير ٢٠١٨م.

الذاكرة في وضع الطيران

مشى بحذر بين صفوف الناس المتراصة في الخيمة الواسعة، قرَّر أن يدخل قبل العرض بفترة من الباب المخصوص لدخول المتفرجين كنوع من التغيير، أو ربما هي حاجة خفية مُلحّة دفعته لذلك، فكّر أنه يحتاج أن يمشي مسافة أطول على الأرض قبل صعوده للأعلى، لاعب السيرك البهلوان الذي يقدم اللعبة الخطيرة؛ المشي على الحبل المعلق في الهواء.

لم يصله إلَّا قليل من التحيات والبسمات خلال دخوله ومروره على الجمهور في المكان، رغم أنه بعد دقائق سيخطف الأنظار جميعًا.

جلس على طرف إحدى المدرجات الإسمنتية النصف دائرية، تأمل الوسط المحيط كأنه لا يعرفه جيدًا، ربما انشغاله بالتعلق في الهواء أنساه الأرض.

كأن المكان بتصميمه وهيئته مسرح كبير، الفرق أن ما يقدمه هو وزملاءه حقيقة، لا تمثيل مثلما يُقدم على المسارح، وطبعًا النهاية مختلفة، الناس ينسونه هو بمجرد نزوله من على الحبل، ويتذكرون الممثلين!

ممثلو المسرح يتفاخرون بصعوبة عملهم، وتميزهم عن صُنّاع السينما، أنهم أصحاب اللقطة الواحدة، لا إعادة للمشهد، الجمهور أمامهم والمخرج من خلفهم، لا مفر من التمثيل الجيد، هؤلاء المساكين لا يعرفون ما إحساسه إذا كان الجمهور تحته، والموت حوله من كل الجهات، الغلطة تكلفه أكثر من الاستياء الذي قد يبديه المتفرجون لممثل أخفق أو تخاذل عن دوره، هو ستستاء الحياة كلها منه إذا أخطأ.

أنزل أفكاره من رأسه بحرص، ترك الخيمة من حيث أتى، ثم التف حولها ودخل من باب اللاعبين، تلفّت حوله، بدأ يغادر الأرض بفكره ونظره، حتى لا تتشبث بها الأقدام.

زعق المُقدم في الناس، مُعلنًا عن الفقرة الواعرة والعرض الذي يحبس الأنفاس، انصرف الجميع عما كانوا فيه ودقّقوا لأعلى؛ في الحبل الواصل ما بين جهتين في الهواء.

سُلَّم طويل يُفضي إلى الحبل الذي سيمشيه، ارتقى برتابة السُلَّم المحجوب، وجهز نفسه للخطوة الأولى في النور، على الحبل أمام الجمهور.

بـدأ الصفـير والتصفيـق والنـداءات وضـج المـكان، انسـابت دقـات طبـول خفيفـة زادتِ الأعصـاب توتـرًا وألهبـتِ الحضور، مَـدَّ رجلـه وبـدأ يقطـع الحبـل بابتسـامة ألقاهـا في نظـرة للجمهـور، عـاد ببـصره للحبـل بعـد أن لمـح سـيدة تجلـس هـي وأطفالهـا مـع الجالسـين، مشـى وعـاود النظـرة، أول مـرة يسـترعي انتباهـه شيء عـدا تركيـزه في الوصـول لآخـر الحبـل، دقـق أكثـر في خطواتـه، كأنـه طفـل يتعلـم المـشي ويترنـح عـلى حبـل مفـروش عـلى الأرض، نظـر للجهـة المقابلـة، لم يجـد أمـه تتنظـر بأيديهـا الممـدودة كـما كانـت تداعبـه طفـلًا، سـقط الطفـل مـن ذاكرتـه بعـد أن عطّلهـا، ليرتطـم بالأسـفل مـن دون ضجيـج، النـاس منشـغلون عنـه بـه، وهـو يـكاد يصـل إلى الناحيـة الثانيـة فقـط لينجـو بعُمـره لا ليفـوز بقبلة وحضـن.

***

★ نُشرت هذه القصة في مجلة [الجنوبي] العدد ٢١ عام ٢٠١٨م.

مصلحة القبور

«عـلى كل ذوي الأمـوات الذيـن مـرَّ عـلى وفاتهـم ثـلاث سـنوات أو أكثـر، سرعـة التوجـه إلى مصلحـة القبـور لتسـديد الضرائـب المسـتحقة وتجديـد شـهادة الوفـاة، عـلى أن يتـم فـرض غرامـة ماليـة عـلى المتخلفـين عـن المواعيـد المُعلنـة».

سـقطت الجريـدة مـن يـده وسـقط معهـا لسـانه، مـا قـرأه غـير طبيعـي بالمـرّة.

لم يكتـم دهشـته، بعـد أن فـرغ مـن قـراءة الإعـلان السـابق المنشـور في إحـدى الجرائـد الرسـمية، أغلـق عينيـه للحظـات علّـه يفتحهـا ثانيـةً فـلا يـرى مـا يظنـه وهمًـا.

مصلحة قبور! ضرائب على الأموات! متخلفين وغرامة!

التقـط الجريـدة ثانيـة، ومـا يـزال التعجـب يسـتغرق نفسـه، أكمـل تصفـح الصفحـة ليجـد أعمـدة تحـوي مقـالات عـن الموضـوع ذاتـه، مـا بـين مؤيـد ومعـارض ومحايـد.

طالع رأيًا مسطورًا في مقالة كانت فحواها:

الأمـر ليـس عقوبـة جديـدة تفرضهـا الحكومـة عـلى المواطنـين، ليسـت طريقـة للتربـح ولا حيلـة لامتصـاص دم الكادحـين، هـي فقـط دعـوة للتفـاؤل، نعـم هـي كذلـك لـو أمعنّـا النظـر في المسـألة.

تـرك الجريـدة عـلى الطاولـة ليـضرب أخماسًـا ببعضهـا وقـد كاد يُجـن، كيـف تكـون الضريبـة عـلى الأمـوات دعـوة للتفاؤل! هـاه.. ربـما لـو أكمـل بقيـة المقالـة لاكتشـف الـسر الخطـير، عـاود القـراءة:

لاحظنـا جميعًـا الفـترة الماضيـة مـرورًا بوقتنـا الحـالي، تفـشِّي حـالات الانتحـار بوسـائل متنوعـة وفي أماكـن أغلبهـا عامـة، فكانـت الفكـرة أن نحُبـب النـاس بالحيـاة مـرة أخـرى بعـد أن طلّقوهـا أو أوشـكوا، تعزيـز العلاقـة مـا بـين النـاس والمعيشـة عـن طريـق سـن قوانـين وفـرض غرامـات، اسـتلهام تجـارب واسـتحداث طـرق مـن شـأنها الحـد مـن حـالات الانتحـار والإنهـاء القـسري لحيـوات المنتحريـن.

تخطـى المقالـة لواحـدة أخـرى، عـلى أن يفاضـل بـين جميعهـا بعـد فراغـه منهـا كلّهـا، الثانيـة تبـدأ بـ:

لا ضرر فيما تراه الحكومة وأولي الأمر مناسبًا للناس، طالما لم يخالف الدين ولم يتعارض مع نصوص الشرع، كل زمان له حالاته وعاداته، لا تُعظّموا المطالب قبل أن تستشعروا المآرب، الحياة هبة من الواجد الموجود، منّة لا يقدرها الأشقياء وضعاف النفوس، إذًا هو خير لكم لو علمتم بواطن الأمر، لا تستعجلوا الفهم بغير إمعان، ثبتوا أرواحكم بالحياة وادحضوا بالآمال بؤس القانطين.

وفي نهاية المقالة توقيع لأحد الشيوخ مع صورة له.

انتقل للمقالة الثالثة، كانت صغيرة جدًا، كلمات قليلة لا تكوّن مقالة بالمعنى الكامل، مرّ عليها بعينيه، وقرأ فيها:

احتجاجات ينظمها ناشطون، ردًا على ما أثارته القرارات الجديدة التي أصدرتها الدولة هذه الأيام، وأبرزها مصلحة القبور التي استُحدثت، والضرائب المتعلقة بها.

بعدما انتهى من القراءة، فكر مليًّا في الأمر برمّته، في أي زمان يعيشون، وإلى أي منقلب سينقلبون، حتى الأموات طالتهم يد الدولة لتعذبهم في الآخرة بعد الدنيا!

ربما يكون متحاملًا، ربما كان هناك ثمّة شيء لا يفهمه، من يدري، ربما...

طوى الجريدة ووضعها فوق الطاولة، ثم تحرك إلى الداخل بسرعة، تذكر أن والدته لم تأخذ الدواء الصباحي بعد، وهذا يُعرّض صحتها للخطر!

***

★ نُشرت هذه القصة في جريدة [الأهرام] العدد ٤٧٨٦٣ بتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠١٧م.

ثقوب للنظر إلى الداخل

(قصص قصيرة جدًا)

[١]

يونيفورم

أنهكه العمل في القرية السياحية التي يعمل بها، حظى بإجازة لمدة أسبوع، جاء في اليوم التالي متحررًا من اليونيفورم، دخل على الاستقبال طالبًا غرفة تلبي احتياجاته، تمشى في الردهة إلى الداخل متجاهلًا نظرة زملائه، نظر للسُلَّم وهو في طريقه للأسانسير، أخرج البقشيش لمن حمل له حقيبته، وتعامل تمامًا كنزيل.

***

[٢]

شاعر عاقل

باستغراق وتأن، كان يكتب وقد أوشك على الانتهاء، الضابط مُستقرٌّ على مكتبه يؤلف قصيدة، فكر في إهدائها لزوجه، ربما ستشكُّ فيه زوجته وتتهمه أنه يخونها، لأنها لا تعرفه كله، سيتطرق فكرها ويتطرف، فتظن أنه يحاول ترضيتها بقصيدة لإحساسه بالذنب من ناحيتها، لا يهم، سيكتبها وإن كان مصيرها مجهولًا إلى الآن، يكفيه لو احتفظ بها ضمن أوراقه وطالعها من حين لآخر، مع قصائد يكتبها منذ كان في الكلية العسكرية، عاد إلى القصيدة وواصل الكتابة، في شُغُله وشغَفَه سمع طرقًا خافتًا منتظمًا على باب حجرته، سقط القلم من يده على المكتب، دخل عليه العسكري يخبره بقرب قدوم لجنة التفتيش والمراقبة الدورية، استفهم منه ثم صرفه، نهض وشَدَّ لباسه العسكري، تهندم أمام المرآة في حمام غرفته اللاحق بالمكتب، بعدها عاد إلى موضع جلوسه، أمسك الورقة بما فيها القصيدة التي لم تكتمل بعد، طواها بحرصٍ وعاد للحمام ثانية، أخفاها بدقة خلف المرآة المثبتة بمنتصف الجدار، وخرج لملاقاة التفتيش.

[٣]

الفائز

دورة واحدة ويصل إلى خط النهاية، أخيرًا سيحقق هدفه الأكبر، الجائزة، المجد والشهرة، كانت الأفكار تتقافز في رأس العدّاء أسرع مما تجري قدماه فوق الأرض، كان بمثابة طائر في فضاء أرضي، لما شارف النهاية قبل زملائه المتسابقين، وقبل أن يمزق الشارة الممدودة على نقطة الفوز، تذكر أنه لم يتلُ صلاته كما ينبغي أن يفعل عند نقطة الانطلاق، توقف يرددها راجيًا أن يتقبلها الله بعدما تأخر فيها، وهو يختمها سريعًا تخطاه عدّاء، ومرق من الشارة.

***

[٤]

يُشبه أباه إلى حدٍ ما

الطائرة على وشك الوصول، هي المرة الأولى التي سيرى فيها هذا الطفل والده، لما تخطى العامين وتعلم الكلام، حدّثه في الهاتف مرات وقال له: « بابا « مثلما أمْلَتْ عليه أمه، كان شغوفًا جدًا ليرى هذا القريب الغريب، أخرج من جيبه صورة له، كان يراها منذ بدا وعيه، هو في الرابعة من سنين عمره الآن، وفي السنة الأولى من عمر معرفته بأبيه، لم تغرُّه الخضرة المنتشرة حوله في المطار، ولم يشغل اللعب باله كأي طفل، أعاد الصورة لجيبه خوفًا من ضياعها أو نسيانها على الأرض حيث يجلس، بدأت صالة الوصول تنبذ الناس تباعًا، يحملون أثقالهم أمامهم على عربات، يتعارك عليهم موظفو المطار لينالوا البقشيش حلاوة السلامة، وقفت أمه وإخوته الكبار وتوجَّهوا ناحية شخص آت ناحيتهم، وهو يلوح بيد ويجر العربة باليد الأخرى، استنتج أنه أبوه، مشى معهم إلى حيث التقوا، ثم حملتهم السيارة قاصدة منزلهم، أثناء جلوسه بجانب والده الذي أصرَّ على وجوده في حضنه، استغَلَّ انشغاله في الحديث مع البقية، أخرج الصورة من جيبه وحرَّك عينيه ما بين الصورة والأصل، وبدأ في اكتشاف الفوارق.

[٥]

ممارسة الحياة في الخفاء

على المقهى كعادته مع الأصدقاء يتفرجون على الوقت وهو يمر، يُخرج كل منهم همومه الجديدة من روحه ويقيسها أمام خُلّانه، يتناولون الأكل والشرب، ليستعدوا بعدها لتحرير الأدخنة المحبوسة في لفافات السجائر ومُعَسَّل الشيشة.

كان يمسك في يده شطيرة، يأكل وهو يسمع صديقه يتحدث عن فيلم أجنبي له ترتيب عالمي في تاريخ السينما، ينصحهم جميعًا أن يسمعوه، ويطلب منهم ترشيحاتهم لأفلام لم يَرها.

لم يشعر بالزيت يتسرب من وجبته ويتقاطر على قميصه الناصع، نَبَّهَه أحد الأصدقاء الجلوس، توقف عن الأكل للحظات، نظر إلى قميصه الملطخ ببقع من الزيت، انتبه وأصدقاءه يقولون بسخرية مشفقة: «أنت تأكل مثل الأطفال»!

ابتسم لهم جميعًا، قضم المزيد من الشطيرة بشهية أكبر، ليسقط الزيت من جديد.

***

⋆ نُشرت هذه القصة في جريدة [القبس الكويتية] العدد ١٦١٩١ بتاريخ ٢٩ يونيو ٢٠١٨م.

⋆ نُشرت هذه القصة في [مجلة الإذاعة والتليفزيون] عدد ١٧ نوفمبر ٢٠١٨م.

القسم الثالث

«هُدْنَة مع الواقع»

أشد الأسى أن ندرك أننا السبب الوحيد في كل
المحن التي تواجهنا

- سوفوكليس (مسرحي يوناني)

حتى لا يسقط التفاح

إنه من الجنة!

صاح بها أحدهم وهو يحمل في يده تفاحة، ثم عاد مؤمّنًا على رأيه:

لا أشك أن هذه الثمار من الجنة.

مسح التفاحة من التراب وقلّبها في يده بإمعان مرددًا:

لا بد أن صغار الملائكة كانوا يتراشقون بها في سماء تعلو سماءنا، وغالبًا استحبوا أن نلعب معهم فألقوا لنا ببعض منها.

تفاح نائم على الأرض بأعداد لا نهائية، هكذا وجد أهل البلدة هذه الظاهرة الغريبة لمّا قاموا صباحًا، بسرعة تجمّع الناس من الذين استيقظوا مبكّرًا، والتفوا حول أنفسهم يتناقشون، غير مصدِّقين ما تبصره أعينهم.

طارت الأسئلة في الهواء، ضاقت الرؤوس بالفِكَر، ما بين عاقل وشاطح، مُصدّق ومُكذّب، كيف تحوَّلت الأرض صندوقَ تفاح ضخمًا!

صاح واحد ثان بغضب وانفعال: لاااا، إنه الشيطان يستخفّنا ليصرفنا عن أحوالنا وأشغالنا، يجمع الناس بهذه الألاعيب ويجلس ساخرًا منّا.

صمت الجمع قليلًا، كأنهم يفاضلون أي الرأيين أهدى، يُعْملون العقل في حقيقة ما يحدث وصحة ما يُقال، يكسر الصمتَ شخصٌ، قائلًا بحكمة وهدوء:

السماء لا تُمطر تفاحًا، أظن أنها هبة من الحكومة، مرت طائرة، والناس نيام، وألقتها إليهم، لا أجد غرابة في توزيع مكافأة تسر الشعب، أليس يعجبكم التفاح؟

أضاف بحماسة: هل هناك أغلى وأحلى من الطعام؟

ثم قضم ثمرة من دون تردد، وقال متلذذًا: التفاح لا يقاوم!

تدَّخل أحد الواقفين وقال بسخط:

أمركم عجيب، كلوا أولًا ثم تَقَصَّوا كما تريدون، ليأكل كل واحد منكم على متسع بطنه، ويحمل ما يستطيع إلى بيته، وأعدكم بعدها أن نُعِّد تحقيقات موسعة عن حقيقة مجيء هذا التفاح إلى هنا، وسنحاكم من فعلها، ونعاقبه بأن يكرر فعلته كل يوم.

زعـق شـخص بقـوة: سـنحرق هـذا التفـاح، إنـه شر، الناس سـتفتتن فتقتتـل، الـكل يريـد النصيـب الأكـبر، ولا مَنـاص للعـدل هنـا، حتـى إن احتكمنـا لمـن يقينـا الفتنـة، نعـرف أن يده سـتمتد -ذاك الـذي سيقسـم- أو فمـه، أثنـاء العـدّ والتقسـيم، لـن يحـدث العـدل.

ظهـر اقـتراح مـن متكلـم جديـد: لمَ لا نهـدي الثـمار تلـك للبلـدة المجـاورة، يحتاجـون الطعـام مثلنـا وأكثـر، أفضـل مـن أن نحرقهـا ولا أحـد سيسـتفيد.

فَـرَدَّ عليـه واحـد: لا تملـك أو نملـك أن نتـصرف وحدنـا، البلـدة كلهـا لهـا حـق الموافقـة أولًا عـلى منـح التفـاح لآخريـن غيرنـا.

تعالـت الآراء وتضاربـت النوايـا والمـبررات، اضطربـت الأجـواء وتزايـدت الفـوضى بشـكل منتظـم، وهـم عـلى حالهـم، أحسـوا الأرض تهتـز بخفـة وتضطـرب، فَسَـكَتَ الجمـع وتلفَّتُـوا في ذعـر وذهـول، أهـو زلـزال أم لعنـة أم جنـي سـيخرج مـن تحـت الأرض، سـاروا بخطـى متسـارعة إلى نقطـة لا تهتـز، وقفـوا يدققـون في المـدى، تـراءت لهـم أشـجار تفـاح

تجـري عـلى جذورهـا، تحـث الخطـو كأنهـا تفـرّ ممـن يطاردهـا، خـلال جريانهـا كانـت تنفـض أغصانهـا مسـتميتة لتتخلـص مـن حمولتهـا.

***

الرجل الذي سَجَن ظِلَّه

كان يمشي ببطء وحذر، وبين الفينة والأخرى يتحفز بشدة متلفِّتًا خلفه فجأة فلا يجد شيئًا، فَتَشُدُّه الخيبة من رأسه لتعيده للسير مرة أخرى، ثم يمشي ويعود ينظر ثم يـ...، وتدور الدائرة.

لا يدري كيف حدث هذا مجددًا ولا متى بالتحديد، لكنّه فقد ظلَّه اليوم، مثل كل مرة لم يجد عقله جوابًا يقنعه، ولن يجد ثمّة عاقل يشكو له فيسمعه.

تمتم بكلمات مختلطة تُنبئ بالغضب والخوف والقلق والتردد، وهو مازال في سيره المتعثر، ظلّه يحيِّره وقدره يكدِّره.

آخر مرة اختبأ منه على سطح المنزل، بعد معاناة عثر عليه وهو يحاول القفز من أعلى نقطة بالبيت، أقنعه بالنزول بعد جدال خانق، إلى متى سيظل تحت رحمة ظلّه السخيف هذا وحماقاته التي لا تنفد!

ها هو يومه يبتدئ بحماقة أخرى ستفسده حتمًا لآخره، في ركضه خلف ظله الطائش المجنون، لابد من وَقفة تُوقف هذه المهزلة، هو الآن حائر بين المضي قُدمًا إلى وجهته والاستمرار في الالتفات خلفه كل فترة، علّه يعود إليه ويريحه من مشقة البحث، أو يعود لمسكنه ويقيم الدنيا ويقعدها، آملًا أن يجده مثل المرّات السابقة فيستريح من انتظاره وينتهي قلقه.

آه يـا ظـلي، آه يـا كلي، أحتى ظلي يـودّ الفرار!، وأنـا لازلت هنا لم يراودني الهروب أو الانتحار، أي لذّة لبقاء وأي كاشـفة لشـقاء!

وصـل الأمـر إلى أنّـه كان يسـوق ظلَّـه أمامـه، ليبقيـه نصـب عينيـه ويمنعـه مـن محاولـة الفـكاك منـه، حملـه عـلى رأسـه، تأبطـه في ذراعـه وقبـض عليـه بيديـه، كل هـذا والظـل لا يـكل ولا يتعـب، الانقسـام صـار حقيقـة تؤرِّقـه.

حسـم قراره واتخـذ طريقًا للعـودة، بعد فترة وصـل إلى منزله، صعـد لمخدعـه وأمعـن النظـر في السريـر ليجـد ظلَّه مُمـددًا في نوم وثبـات، كيـف فاتـه هـذا؟! نسـى هذه المـرة أن ظلَّـه البارحـة نام جـواره للصبـح! حينـما اسـتيقظ خرج مسرعًـا مـن دون أن يعيره انتباهًـا، لقـد أخطـأ في حـق ظلِّه هذه المـرة، هو من انقسـم ومضى بـلا ظل إلى الشـارع.

كيـف يتخلـص مـن هـذه المأسـاة شـبه اليوميـة، ينسـى ظلـه أو ظلـه يتناسـاه، لابـد مـن حـل نهائـي، خـرج مـن الغرفـة بهـدوء شـديد وأغلـق البـاب خلفـه، وأدار المفتاح في قفـل الباب مرتـين وألقـاه في جيبـه، ثـم نـزل إلى الطابـق السـفلي وأعـد غرفة للنـوم، اسـتلقى عـلى ظهـره وقبـل أن يغمـض عينيـه، تأكـد أن المفتـاح في جيبـه، فارتـاح لمّـا تأكـد أنـه سـجن ظلَّـه.

***

★ نُشـرت هـذه القصـة في جريـدة [الأهـرام] العـدد ٤٧٦٤٦ بتاريـخ ١٩ مايـو ٢٠١٧م.

إنيموري

ليلة شتوية باردة، هدوء يبعث النفس للكسل، بعد أن خمدت نيران التدفئة، نام الكلب الحارس وأحس الوحدة بعدما انقطعت أنفاس الجوزة من الشد، أسند رأسه على الجدار وغالبه النعاس فغلبه، نبتت أجنحة عقله الباطن وطارت به أحلامه إلى بعيد، شاهد نفسه في سيارة فخمة يقودها سائق ذو هيئة برّاقة، سرعان ما ترجّل سائقه واستدار ليفتح له باب السيارة، نزل بتكاسل ممزوج بالرضا، وعينه معلّقة ببنايته الضخمة.

هو يملك هذا البرج المعماري الضخم، خمسة عشر طابقًا، بكل طابق ثلاث شقق، ما بين الأسرات والمكاتب والعيادات، زاغت عينه لنقطة غير محددة والزهو يعصف برأسه؛ الكل ينظر له بخيلاء، كصاحب ملك هم عليه ضيوف مهما طالت إقامتهم وإيجاراتهم.

جاء اليوم ليتسلم إيراد الإيجارات من حارس البناية، يتسلمه من السكان مطلع كل شهر جديد، وينتظره هو الحاج صاحب المال، يأتي ليجمع ما حصده حارسه ويذهب به للبنك.

خـرج لـه الحـارس مهلِـلًا بعبـارات الترحيـب والتـودد طمعًـا في نفحـة يطولهـا مـن يـد الحـاج، سـلّم عليـه بمـودة بـاردة وسـأله عـما جمعـه الأيـام الثلاثـة الماضيـة، طـار الحـارس لغرفتـه وغـاب دقيقتـين، عـاد وفي يـده رزمـة ماليـة بـالآلاف، أخذهـا بثقـة وعـدّ مـا فيهـا مـرة، ثـم الثانيـة، دسّـها في جيبـه واطمـأن، وأخـرج للرجـل ورقتـين ماليتـين ودسّـهما في يـده، مـن دون أن ينظـر لـردة فعلـه عـلى مـا أعطـاه لـه.

عـاد إلى السـيارة، وقـد كان السـائق قبلـه ينتظـر منـه أمـرًا للانطـلاق، وانطلقـت السـيارة في طريقهـا للبنـك، أحـسَّ الحاج بـبرد شـديد فأمـر السـائق أن يخفـض مـن شـدة المكيَّـف قليـلًا، سـمع صـوت نبـاح لكلـب حولـه يـزداد ولم يعـرف مصـدره، العربـة مغلقـة والطريـق إلى البنـك لا يوحـد فيها كلاب، اسـتمر الصـوت في الازديـاد وصـار أكثـر حـدةً ووضوحًـا، تململ في رقدتـه وبـدأ يلتحـف يديـه عـلى جسـمه مـن لسـعة الـبرد التـي طالتـه، نـام مـن دون غطـاء، فتـح عينيـه ليجـد النـور محيطًـا بـه، اختفـت السـيارة والسـائق، تحسـس جيبـه فلـم يجـد غـير جنيهـات كانـت قـد تبقـت معـه بعدمـا اشـترى عشـاء الليلـة الفائتـة. اسـتمر الكلـب في النبـاح والجـري هنـا وهنـاك، سـمع صـوت سـيارة قادمـة، فكَّـر فيـما بينـه وبـين نفسـه:

«لا بـد أنـه الحـاج صاحـب الملـك جـاء ليأخـذ الإيجـار منـي»، اعتـدل مـن رقدتـه ونفـض عنـه النـوم، ورسـم بسـمة تليـق باسـتقبال الحـاج.

***

- ★إنيموري: كلمة يابانية تعني نيل قسط من النوم أثناء فترة العمل.

ابتسامة في وجه الوهم

(قصص قصيرة جدًا)

[١]

هل شاهدت البحر واقفًا؟

هل يتوقف البحر فعلًا كما سمع منه؟ وهل يتحقق ما سيتمناه إذا أدرك البحر لحظة توقفه؟

دارت الأسئلة برأسه، وهو يواجه المياه جالسًا على البحر، تخبط وتنحسر، ثم تعود لتصطدم ثانية بصخور باطنه.

جلسة مع واحد من أقربائه كانت على غير ترتيب، تبادلا الأحاديث المتفرقة عن الحياة والناس، استمع لذاك الرجل وهو يحدثه عن طفولتهم ولهوهم في البحر، الذي هو في الأساس النيل، لكن كبرنا ووجدنا أهلنا يسمونه البحر فنقلنا عنهم، وجد نفسه يردد كلمة البحر مثلهم لا النيل، المهم في الموضوع، أخبره أن أسطورة تَحكي أن البحر يتوقف عن

الجريـان كل سـنة مـرة، مـن أدركـه يـوم التوقـف هـذا، وشرب شربـة منـه، تتفتح له الأسرار وتتكشـف لـه الأخبـار، وتتحقق له الأمنيـات المسـتحيلات.

مـن يومهـا، وهـو يذهب يوميًـا إلى هنـاك، لعله يـدرك فيفوز، كان يقـف كل يـوم يراقـب البحـر سـاعات طويلـة، والبحـر الأصـم لا يسـتمع لندائـه، ولا يقـف.

***

[٢]

أفكار لترميم الرأس

استغرقته الأفكار وغاص إلى القاع في ما يكتبه، أحس أن القصة تُملي نفسها عليه، كيانه ينصهر، ثم يتقاطر ويتشكل على هيئة حروف تتراص لتصبح كلمات، مع الوقت راوده شعور غريب، أحسَّ برأسه ينقص شيئًا فشيئًا، كأنه طيور مجتمعة وجاء أحد ليهشَّها، فصارت تطير تِباعًا، إلى أن طارت كل الطيور وفرغ رأسه وخَوَت إلَّا من الجمجمة الفارغة.

انتهى من كتابة القصة، وانعدمت قدرته على التفكير بعدها، عقله لا يعمل، أو غير موجود أصلًا، بقى مكانه لا يعرف ماذا سيفعل، أمسك بالأوراق التي كتب عليها ووضعها على رأسه، عاوده تحسنٌ وتدفقُ إحساسٍ بوجود عقله، فبدأ يفكر: كيف يعيد رأسه مثلما كانت!

***

[٣]

بعيدًا عن المَرْمى

يشاهد مباراة لفريقه المفضل، جلس أمام التلفاز وكله مُنْتَبِه لما يراه، سرح بخاطره إلى ما يحدث في الملعب، تخيَّل نفسه مكان المهاجم الذي يجري بالكرة ليصنع هجمة مرتدة، يعبر الأرض الخضراء بسرعة ليقترب ناحية شبكة الخصم، يقترب أكثر ويتبدى له حارس المرمى واضحًا، قبل أن يسدد ركلته، يجد زوجه تحرس المرمى وتقف له بالمرصاد، تصعقه المفاجأة، تطيش الكرة وتذهب بعيدًا عنه، ويجري هو ناحية المُدرّب طالبًا التبديل.

***

[٤]

الحياة= صفر

واتتـه الفرصـة ليركـب آلـة الزمـن، فاختـار أن يعـود بهـا إلى بطـن أمـه.

***

[٥]

جنّة إيجار جديد

دائـمًا يـراوده حلـم لطيـف، يرى أنـه امتلـك بيتًا واسـعًا بديلًا عـن غرفتهـم فوق السـطح، يضـم هـذا البيـت كل أهلـه وأحبّته وأصدقائـه، جنّـة مُصغَّـرة لهـم، يصحـو مـن نومـه مبتسـمًا، وهو يحلـم بشـقة عرضها ثـلاث غـرف، لـه هـو وأولاده وزوجه.

***

الفهرس

تصديـر.....٧

القسم الأول: أفكار خاطئة عن الحياة

سِـفر شريعة الحـرب.....١٣

رصاص فـارغ.....٢٥

قبل الحيـاة بدقائـق.....٣٥

من سـيهتم؟ (قصص قصـيرة جـدًا).....٣٩

القسم الثاني «نَدَبات في جسد العالم»

أفـواهٌ مفتوحةٌ لا تبتسـم.....٥١

الذاكـرة في وضـع الطـيران.....٥٧

مصلحـة القبـور.....٦٣

ثقـوب للنظر إلى الداخـل (قصص قصيرة جـدًا).....٦٩

القسم الثالث «هُدْنَة مع الواقع»

حتى لا يسـقط التفاح.....٨١

الرجل الذي سَـجَن ظِلَّـه.....٨٧

إنيمـــوري.....٩١

ابتسـامة في وجـه الوهـم (قصص قصـيرة جـدًا).....٩٧

الكنزي
ALKANZY